حذار من الفتنة الطائفية
مواجهة العدو الأجنبي صاغ الوحدة الإجتماعية تاريخياً

ـ 1 ـ

الحدث التاريخي الذي سيلعب الدورَ المؤثر في كل التطورات المحتملة في المكان المحـدد : **وهـو العراق** في **هذا الوقت التاريخي الراهن** ، لا تحدده الطبيعة التكوينية للحدث من حيث محتواه وأفقه ، السلبية أو الإيجابية على وجه التحديد ، إلاّ إذا كان الوعي الفكري ينتظم مجرياته العامة مـن نقطـة إبتدائه ويتضمن سـيرورته ويذهب إلى صيرورة هدفه واقعاً إجتماعياً قائماً . فمثلما ستكون طبيعـة الحدث التاريخية الإيجابية تشـي بالوعود المستقبلية الخيرة ، **فإن طبيعة الحدث التاريخيـة السـلبية سَتسِم التطورات اللاحقة بالتشرذم والتفكك** . القتال ضد الأجنبي سيعيد صياغة الوحدة الوطنيـة على أرضية مجتمعية موحدة لصالح العراق . **فيما سيتسبب التقاتل العبثي العشـوائي** في **شـرذمة التمع ويجعل الصراع المسلح عمودياً ، لا يلعب أي دور إيجابي لصالح المستقبل** . المستقبل مرهون بالعمل الوطني العراقي من أي طرف سياسي وطني واعٍ ينشد التحرير الوطني والتغيير نحو الأحسـن والأرقى . والنوايا الحسنة لوحدها ، الصادرة عن البعض ، لا يمكن إعتبارها عاملاً أساسياً وفيصـلاً جوهرياً في تطور الأحداث نظراً لطابع التطورات السياسية الموضوعية التي سيشهدها العراق .

لتوضيح ذلك علينا تذكر ما حدث في لبنان خلال عقدي السبعينات والثمانينات من حرب أهلية مشؤومة طالت كل شـعبه بتكويناته القومية أو الطبقية أو الطائفية . سواء الذي تسببت بإنـدلاعها عملية إنتفاضة الصيادين وإغتيال القائد النقابي المناضل معروف سعد في صيدا ، أو إطلاق النار مـن قِبَل الميليشيات اليمينية على الحافلة الفلسطينية في عين الرمانة ، وإستشهاد مَنْ فيها ، والخطف والذبح على الهوية . الأسباب ((القومية)) من وجهة نظر البعض ، أو الأسباب الطبقية من وجهـة نظـر البعض الآخر : وفق المدرسة اليمينية الفكرية أو المنهج اليساري في التحليـل لإسـتكناه الأسـباب والمبررات والمسوغات لإندلاع الحرب الأهلية . **ولكن الحرب الأهلية كانت حرباً حقيقية مرئيـة تلمس اللبنانيون كلهم ، والساكنون** في **لبنان من اللاجئين الفلسطينيين ، نتائجها المأسـاوية على صعيد العباد والبلاد** . . .

كانت تلك الحرب الأهلية المشؤومة الناشبة التي تطورت بـدفعها الـذاتي الاِجتمـاعي علـى مرتكزات طائفية : بين المسيحيين والمسلمين ، ومذهبية بين المكونات التي تنتمي للدينين السماويين ، الذي يزعم دعاته المفكرون السياسيون إنم يعبدون الإله الواحد . كان للخارج العربي والإقليمـي والدولي دوره التحريضي والتمويلي والتسليحي في مفاقمتها وصيرورتا مظهراً عامـاً في التطـورات السياسية والاِجتماعية اللبنانية . ولا ندري أيَ إرضاءٍ للقدرة الإلهية في قصفٍ مستمر لأرزاق البشـر التي أفاض برحمته على بعضٍ من مخلوقاته الذين جدوا واجتهدوا في سعيهم بالأرض . ((وأنْ لـيس للإنسان إلا ما سعى)) . وقطف أعمار وديعته على الأرض . ((مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)) وهي الدوافع الأساسـية وراء اِنتشار مفاهيم المحبة والعفو والتسامح عند رواد هذين الدينين .

هذا هو المثال الأول الذي يدعونا للتفكير ، وإطالة التفكير والتدبر فيه ، والتبصر في **معنـاه ومبناه وسيرورته التي تنامت بعد إطلاق شرارته الأولى** في **صيدا أو** ممر عين الرمانة .

أما المثال الثاني فنستوحيه من شيطانية التفكير الأمريكي الإستراتيجي والتخطيط السري لآلياتـه ومساراته وأبعاده . كما تجسّـد في التنظير السياسي لزبغنيو بريجنيسكي الذي يصَّـب في المصـلحة الأمريكية ، ومفاهيمه العملية الهادفة إلى ترجمة ذلك التنظير ، التي يتقدمها ((التقاطع)) و((العمليـة السياسية)) باِعتبارهما مفهومان متكاملان في العمل السياسي ؛ كما برهنت على طابعـه التجـريبي والعملي في العديد من الساحات العالمية ؛ وهما يعنيان في الواقع السياسي والعملي ؛ ((**التقاء حركـة عدة قوى** في **نقطة ما ، فعند حدوث ، كحصيلة لتقاطع مصالح عدة أطراف ، يشعر كل طرف ، كبيراً أم كان صغيراً ، بأنه حقق شيئاً ، {. . .} ، وبما أن حالة التقاطع الموجه والمرسوم ، حيـث تدفع القوى الأقوى إلى تحريك العمليات السياسية** في اِتجاه **يحقق مصالحها ، أو على الأقل يتحرك ضمن مصالحها هيَ ، ففي هذه الحالة سـيحقق الطرف الأقوى مصلحته ، وسيضمن** في **نفـس الوقت شـعوراً بالرضا ـ ولو مؤقتاً ـ لدى الطرف الأضعف**)) .

ويلعب مفهوم ((العملية السياسية)) دوراً مكملاً لفكرة/مفهوم ((التقاطع)) حيث ((**نتيج القـوة القادرة التأثير** في **هذه الحركة**)) بل على ((**إطلاق**)) هذه العملية ، ومن ((ثم **مراقبة حركتها وعدم التدخل ، إلا عندما تخرج عن الرى العام ، الذي يتفق مع مصلحة القوة القـادرة ، ويـرى إن ظروف الحرب ، والأزمات ، والتوتر هي ظروف خصبة بوجه خاص**)) بغية رسم ((**التوجهـات العامة التي فد تأخذ با أمريكا ، لكي تواجه بشكل فعّال المشاكل الخارجية**)) .

ويُشـيه مترجم كتاب ((بين عصرين)) السيد محجوب عمر ، المفهوم الذي اِبتدع بريجينسـكي مقولاته الأساسية ، وطبقت إستراتيجيتها السياسية وخطوط تحركاتا العملية الإداراتُ المتعاقبة منـذ

السبعينات في القرن الماضي ، بقصة بسيطة في وقائعها الفعلية ومستمدة أحداثها من الواقع الريفـي العربي ، كبيرة في مغازيها ودلائلها وموحية في معانيها التي تنطوي عليها ، بدف شرح أبعاد الآليات العملية لترجمة هذين المفهومين ((العملية السياسية)) و((التقاطع)) . . . القصـة القرويـة البسـيطة المعروفة بـ((**حل الحبل**)) التي تقول : **إن الشيطان أراد اِختبار اِبنه ، فأمره بإشعال الفتنة** في **قرية ، فذهب وعاد بعد ثانية واحدة** .

ـ فسأله أبوه ((ماذا فعلتَ)) ! ؟ .

ـ فقال الاِبن : لقد ((حليتُ الحبلَ)) .

ـ فسألَ الأبُ الاِبنَ : ((قَسـر)) .

ـ قال الاِبن : وجدتُ اِمرأة ربطت العجل الصغير بعيداً عن أُمه حتى تحلبها ، **ففككتُ حبله** ، فِانطلق إلى أُمه ، فأوقع وعاء الحليب ، ورضع ما تبقى من ضرع أمه ، وعندما عـادت المـرأة إلى زوجها ، لم يصدق أنا ربطت العجل ، واتمها بالإهمال ، وضربا ، فذهبت إلى أُخوتـا باكيـة ، وجاء هؤلاء ، وتضاربوا مع الزوج ، ونشب العراك والقتال في القرية)) [1] فمَـنْ سـيفك عقـدة المشكلة الطائفية في عراق اليوم الذي تتهدده أخطار كبيرة ، **بلَه أخطار جدُ كبيرة** .

* * *

ـ 2 ـ

الأنباء التي تناقلتها الوكالات من مدينة البصرة ـ **فيما إذا كان ذلك صحيحاً** ـ حول هجـوم من قبل ((مجموعة تنتمي إلى المذهب الشـيعي)) على مديرية أوقاف الجنوب ((الخاصة بمذهب أهل السنة)) واحتلالها وطرد العاملين فيها : موظفين وشيوخ ، في هذه الفترة من الأزمة المعاشية الـذي تسببَ الاِحتلال والغزو الأمريكي ـ البريطاني با ، والرد على هذا التصرف بالتظاهر الجمـاهيري والذهاب للبريطانيين **لجعلهم الحكم العدل** بين **الطـرفين** ، **من قبيل اللعب بنار الطائفية الـتي يراد لجمرتا الاِتقاد والتفاقم والاِشتعال** ، في وقت يجثم المحتلـون الأجانـب مـن صـليبيين متصهينين ، وتصبُ نتائجها البغيضة في مصلحتهم حتماً ، **وهي تشتيت للقوة** في **وقت المطلوب فيه توحد الشعب العراقي الكلي** ، ويتطلب الوقوف اِلجدي أمامها بالفهم المحمدي لمضـمون القـول الجاهلي حول أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوما ، فقيل كيف يا رسول الله ، فأجاب : أُنصره عندما يكون مظلوماً واردعه عندما يكون ظالماً .

لابد من النظر إلى هذا الحدث بشيء من الجدية والصرامة والعدل . ربما كان من حق المهـاجمين العمل على تعديل قوانين ما لحق بهم من غبن ، ولكن هل هو الطريق الناسب والوسيلة الملائمة لفرض الوقائع على التمع وفي هذه الفترة ؟ ، هل هو الرى الصحيح للوصول إلى ذلـك الهـدف ؟ . **إن طريق جهنم مليء بالنوايا الحسنة** . الأمر الذي يجعل إجابتنا حول تلك التطورات عنـد مناقشـتنا لأبعادها وأهدافها السياسية ومراميها التخطيطية تنطلق من طبيعة الظرف الراهن : **سـلطة الغـزو البريطاني هي القوة الحاكمة التي تبحث عن المصلحة الأمريكية البريطانية المشتركة** . وإن الحل لهذه المشكلة ـ إذا كانت هناك مشكلة ـ ينطلق من تفاهم بين ممثلي المـرجعيتين المـذهبيتين لا رمـي التصرفات على أيدي أصحاب الجهالة والدهماء ، الواعون المفكرون الملتزمون بالشـروط الدينيـة لا الداعون المدعون الذين يهبّون مع كل ريح وينعقون مع كل ناعق . وهما ـ مثلما يعلنون ـ علـى قبلة وعبادة والتزام واحد وأتباع كتاب واحد ، ويؤمنون بالكليات المشتركة عند المـؤمنين بالـدين الإسلامي الواحد ، والتوافق بينهما في هذه المرحلة يتم على قاعدة الوعي المطلوب بالخطر الذي يراد ِاستنباته ومفاقمته ووصوله للحظة الِاقتتال بين طرفين أخويين ، تنبع ِاخوتما من طبيعة الأرض الـتي يعيش عليها جميع العراقيين ، ومن عُـرف التمع الذي ينمون بين حيثياته المكملة بعضـه للـبعض الآخر .

ولكن ما ينبغي قوله للمجموع الوطني العراقي المخلص ، هو أن الرؤية الأمريكية ـ البريطانيـة حول تجزئة الوطن إلى ثلاثة مكونات ، **خط سياسي ثابت ومجسـدَ بخطط الـدول الِاسـتعمارية سابقاً ، وهو أحد معالم تفتيت الرؤية الوطنية والقومية ، ليس في العراق فحسب وإنمـا في كـل أقطار الوطن العربي وكذلك في العالم** . اليوم يحاول البريطانيون إثارة المشكلة في الجنـوب علـى أرضية طائفية ، بغية جعل العراقيين يلغون في دمائهم الذاتية تمهيداً للعق الجميع جراحهم ، ومـن ثم الطلب للعدو التدخل في حل المشكلة التي ((خلقها)) بغية تخفيف آثارها المأساوية على العـراقيين . التجربة اللبنانية واضحة على صعيد هذا الميدان ،ِاستعان اليمينيون بسوريا من أجل طرد الفلسطينيين المسلحين والقضاء على الحركة الوطنية اللبنانية . ولكن الِاثنين بقيا . فِاستعان الصف اليميني بقيـادة بشير الجميل بالإسرائيليين الصهاينة لطرد الفلسطينيين والسوريين ، وكانت النتيجة أن الثلاثة بقـوا فوق الأرض اللبنانية . فوضع البعض الذي تناسى وطنه وظن إن الأمريكيين هم الأقـرب لـه . . . وضعوا كل بيضهم في السلة الأمريكية ، فجاؤوا بطائراتم القاصفة القاذفة وبوارجهم المدمرة لطـرد الفلسطينيين المسلحين والقضاء على اللبنانيين الوطنيين ، ولكن الأربعة بقوا في لبنان ، ولم تزحـزح الأمريكيين إلا العملية الِاستشهادية التي كتمت أنفاس أكثر من مائتين من قوات المارينز ، ولم يـتم إناء هذا المسلسل من الفعل الطائفي وردود الفعل الطائفية ، إلا عندما توجهت البنادق اللبنانية ضد العدو الصهيوني الأجنبي .

كانت عشرين سنة تقريباً كافية لكي تستنزف الدماء الغزيرة وتقتطف الأرواح العزيزة ، ويعـم الخراب في كل لبنان وتتوقف عجلة الإصلاح المادي . بين الِاسـتقبال للصـهاينة الغُـزاة بـالرز والهلاهل من قبل بعض اللبنانيين ، الذين دنسوا لبنان من خلال ِادعائهم بتخليصهم من ((السـلاح الفلسطيني)) وبين دحرهم بالرصاص والمقاومة الشعبية ، كانت الدروس التاريخية غزيرة ومؤلمة لكي يتبلور الوعي التاريخي بضرورة توجيه الأبصار نحو العدو الخارجي وتسديد الرصاص علـى صـدور الغزاة وعملائهم .

* * *

ـ 3 ـ

إن الأيديولوجية الطائفية مهما تجلت وبأي صيغةٍ تجسدت تلعب دوراً ملموساً في زرع الفرقة بين أبناء الشعب الواحد ، وتشرذم بنية المجتمع الواحد ، وتقسمهم إلى طوائف متصارعة متناحرة متقاتلة تنخر ـ في خاتمة المطاف ـ وحدته التكوينية ، وتسهم أوتاماتيكياً وموضوعياً في تحفيـز الفكـر الطائفي ، وتستثير النزوعات الِانتقامية الغريزية نحو حدّها الأقصى ، وتوجه فعلها بِاتجاه الأشقاء الذين يلتزمون بفكرة الوطن الواحد ويؤمنون بالدين الواحد والإله الواحد ، إنا رؤية فكرية متعصبة لصراع تدور رحاه في حلقة مفرغة ، لا يعرف أحدٌ طرفيها ولا الغاية مـن ثمراتـا المريـرة . إن هـذه الأيديولوجية ستشطب على حقيقة الصراع بين المكونات الوطنية وقوات الغزو المدججين بالأسلحة المتطورة . الصراع الذي يتطلب وحدة ِاجتماعية عراقية راسخة . إنا نمط مـن الـوعي الفكـري والسياسي الزائفين ولن يفضيان لطريق يحل الأزمة المفقودة بمعايير العدالة التامة أو التي تقتـرب منـه وتلامس مطالبه ، **وإنما سيفاقم الصراع العبثي** بين **قوى المجتمع العراقـي الواحـد ،** في **حـين إن المطلوب توجيه الأنظار وتركيزها على العدو الغازي المحتل** .

إن تنمية الأخطار الطائفية بحجة النقص في نيل الحقوق الِاجتماعية والسياسية ، ومفاقمة عوامـل الخوف الغريزي من الآخر ، هو الطريق الذي يشد الأعصاب ضد الآخر الشقيق في الآصرة الوطنيـة العراقية . ولن يتراجع أو يضمحل هذا الخطر الكامن/الماثل إلا بمراكمة الوعي الفكري والسياسـي ، وقطع دابر التدخلات الخارجية ، ومحاصرة العملاء الذين يرددون التعليمات الأجنبية . من هنا كانت المظاهرات الشعبية في النجف الأشرف المضادة للغزاة ، وفي أربيل التي شـكلت دحـراً موضـوعياً للحضور الأمريكي في شمال العراق الذي ُاستقبل قادته من غارنر وبول بريمـر بـالورود والتغاريـد والرقصات الشعبية ، وقصفت طائراته الخسيسة جماعة أنصار الإسلام وأبادتم بتواطؤ مـن الـبعض الكردي المسلح ، وكذلك الهّبات الجماهيرية في مختلف مدن العراق . . . كانت تلـك المظـاهرات

الشعبية في توجهاتنا العامة ضد الأجنبي وعملائه **تعبيراً عن وعي** سياسي وفكـري بمخـاطر فعـل الأجنبي الغازي المحتل ، ومحاصرة الأطروحات الطائفية والأثنية التي تحاول مشاركة العدو في غنائمـه تحت مقولات مخاتلة تدعي التمثيل الطائفي والأثني . **كان تركيز المتظاهرين على ضرورة مقاومـة الغزاة المحتلين ، ومن أجل العراق الواحد وانتمائه التاريخي الحضاري الإسلامي الضربة الكـبرى للأطروحات الطائفية** . الوعي الفكري والسياسي الذي تحلى به العلماء المسلمون والمراجع الدينيون الحقيقيون بأهمية الرؤية المستقبلية لعراق واحد سيفوت الفرصة على كل المصطادين بالماء العكر ، من جهة ، وهذا الكم الشعبي الهادر في المدن العراقية يطرح سؤالاً أساسياً حـول المرجعيـة التاريخيـة للمتعاونين مع الغزاة المحتلين أصحاب الفيتو البريمري ، **مَنْ يمثلون إذن ؟ ، وهـل يعبـرون عـن طموحات الشعب العراقي أو أجزاء منه** ؟ ، من جهة أخرى .

إن حل الإختلافات بالتي هي أحسـن على قاعدة وعي الأولويات السياسية وفهـم المطلـوب لتجسيدها عملياً ، **وليس الخلافات الذاتية بالتأكيد** ، هي رؤية حضارية سديدة لبناء مستقبل وطني واعد بالخير لكل المجتمع العراقي ، ويتطلب الوصول إليها اللقاء اليومي بين الأطراف والقوى الممثلـة للمجتمع العراقي كله ، القوى الحريصة على الحل الوطني في الإطار الوطني : العراقي ، المناضـلة في سبيل دحر القوات الغازية المحتلة ، وهو ما يوجب إرتياد طريق العمل الجبهوي الموحد الهـادف إلى تنمية عوامل المقاومة بكل أشكالها الكفاحية وصيغها النضالية ، **من ناحية أولى** ، وتحرير الوطن مـن ربقة الإحتلال والإذلال والإستعباد ، وإيجاد القواسم الفكرية والسياسية المشتركة التي تؤدي لتحرير الإرادة الوطنية العراقية وتحرر شعبنا من القوات الأجنبية الغازية المستعمرة ، **من ناحية ثانية** .

2003/7/22

باقر الصرّاف

كاتب عراقي مقيم في هولندا

[1] ـ راجع كتاب مسؤول الأمن القومي الأسبق : زبيغنيو بريجينسكي المعنون بين عصـرين : أمريكا والعصر الأليكتروني ، ترجمة محجوب عمر ـ إصدار دار الطليعة / 1982 ، بيروت/لبنـان ، الصفحات 11 ، 18 ، 20 . وص 11 ـ 12 على التوالي .